

Ibn Al-Adim's Defense of the Doctrine of Abu Ala Al-Maari

دفاع ابن العديم عن عقيدة أبي العلاء المعري

Hanaa Abu Al-Rub^{1*}.

¹Applied Science Private University, Amman, Jordan.

ARTICLE INFO

Article history:
Received 12 Jun 2018
Accepted 27 Sep 2018
Published 01 Apr 2020

*Corresponding author:
Applied Science Private University, Amman, Jordan.
Email: aborub_hanaa@yahoo.com.

Abstract

This study investigates and analyzes Ibn Al-Adim's book entitled "Al-Insaf wa Tahari fi Dafa' Al-Dhulm wa Al-Tajari 'an Abi Al-Alaa Al-Ma'arri" (588-660 H). This source is the only available classified book dedicated to discussing the controversial issue raised by early critics regarding Abi Al-Alaa Al-Ma'arri's doctrine. However, the loss of some parts of the book hinders confirming with certainty whether Ibn Al-Adim achieved his objectives in writing this book. Yet, the parts we have confirm the author's positive attitude toward Al-Ma'arri's faith and ensure the validity of his religious beliefs. In this book, Ibn Al-Adim also responds to several suspicions surrounding Al-Ma'arri's Islamic faith.

Keywords: Abu Al-'Ala Al-Maari, Ibn Al-Adim, "Al-Insaf wa Al-Tahri" book, Abbasid Literature.

الملخص

تتناول هذه الدراسة التحليل والبحث في كتاب "الإنصاف والتحري في دفع الظلم والتجري عن أبي العلاء المعري" لابن العديم (٥٨٦-٦٦٠هـ)، وتأتي أهمية هذا الكتاب من كونه المصنّف الوحيد القديم-فيما بين أيدينا من مصادر-الذي أوقفه مؤلفه على قضية أثارت جدلاً واسعاً بين النقاد القدامى، وأعني بها عقيدة أبي العلاء المعري، إلّا أن فقدان أجزاء من هذا الكتاب حال دون التأكيد على وجه اليقين-فيما إذا كان ابن العديم قد حقق فعلاً كل ما كان يصبو إليه من تأليفه لهذا الكتاب، ومع ذلك فإن ما وصل إلينا من أجزاءه يؤكد لنا موقفه الإيجابي من المعري واطمئنانه إلى صحة معتقده الديني، كما عني في مؤلفه هذا برّد عدد من الشبهات التي دارت حول المعري وطعنات في صحة إسلامه.

الكلمات المفتاحية: أبو العلاء المعري، ابن العديم، كتاب "الإنصاف والتحري"، الأدب العباسي.

١. المقدمة

أثار أبو العلاء المعري جدلاً كبيراً بين الأدباء والمؤرخين والنقاد القدامى، فتعددت مواقفهم واختلفت آراؤهم تجاه عقيدته ودينه، فمنهم من وجه إليه سهام الاتهام والتكفير، ومنهم من وقف مدافعاً عنه منزهاً إياه عما علق به من اتهامات، أثناء ترجمته له أو أفراد كتاب كامل للدفاع عنه كما فعل ابن العديم الذي عني بتصنيف كتاب لإنصاف شيخ المعرفة الذي نحن بصدد دراسته وتحليله.

وقبل الوقوف على الكتاب والحديث عنه، لا بدّ من الوقوف على الأسباب التي أدت إلى اتهام أبي العلاء في دينه والتشكيك في عقيدته ومن ثم تكفيره، وحتى نصل إلى هذه الأسباب كان علينا أن نتتبع موقف المؤرخين مما أثير حول أبي العلاء من تهم ورأيهم فيها من خلال ما ذكروه في كتبهم عند الحديث عنه بدءاً من المعاصرين له وانتهاءً بالقرن الثاني عشر الهجري.

ولنبداً بالثلاثة المعاصرين لأبي العلاء، فالثعالبي في تنمة البيتمة (ت ٤٢٩هـ) لم يذكر شيئاً عن عقيدة المعري، أما البغدادي في تاريخ مدينة السلام (ت ٦٢هـ) فيذكر أن المعري صنف كتباً في اللغة وعارض سوراً من القرآن، وهو بقوله عارض يجزم بذلك، ولم يأت بمثال من الكتاب يثبت المعارضة ليقول بعد ذلك: "وَحُكي عنه حكايات مختلفة في اعتقاده حتى رماه بعض الناس بالإلحاد" (مصطفى السقا، ١٩٨٦) فالبغدادي لم يذكر من حكي تلك الحكايات وتركها مبنيةً للمجهول. ليأتي بعد ذجعفر (محمدي في دمية القصر (ت ٤٦٧هـ) وهو من مروجي هذه التهمة، غير أن استخدامه لبعض الكلمات شككت بصحة ما يقول فبدا وكأنه غير متأكد من إلحاد المعري فيقول: "ربما رشح بالإلحاد إنأؤه... والله أعلم ببصيرته والمطلع على سيرته، وإنما تحدثت الألسن بإساءته لكتابه الذي زعموا أنه عارض القرآن ... وأظهر من نفسه تلك الخيانة وجدّ تلك الهوسات كما يجذّ العير الصليانة" (مصطفى السقا، ١٩٨٦) في البداية يقول ربما، وبعد ذلك يقول تحدثت الألسن دون ذكر من تحدث، ثم يقول زعموا والزعم في اللغة الكذب، وبعد هذا ومن غير أن يتحقق من صحة الخبر أو التهمة يتهمه بالخيانة ويأت بشعر للقاضي أبي جعفر (محمد بن إسحاق بن علي ت ٤٦٣هـ)

كلب عوى بمعرة النعمان لما خلا عن ريقة الإيمان
أمعرة النعمان ما أنجبت إذ أخرجت منك معرة العميان

ومن هنا نلاحظ أن التهمة بدأت في الظهور بوجود أبي العلاء أي قبل وفاته، ونشرها معاصروه دون أن يتحققوا من صحة ما نسب إليه ليأتي بعد ذلك من يأخذ هذه التهمة يزيد عليها ويحيك حولها القصص والحكايات. ولعل ما يلفت النظر ويثير التساؤل هو إصرار المؤرخين المعاصرين له ومن جاء بعدهم على إلصاق التهمة بأبي العلاء على الرغم من أن أبا العلاء قد ألف كتاباً أسماه "زجر النابح" يُبطل فيه طعن المُزري عليه والقادح، مبيّناً فيه إيمانه الصحيح، وقد ذكره غير واحد من الأدباء والمؤرخين منهم على سبيل الذكر لا الحصر ياقوت الحموي فيقول: "وكتاب زجر النابح يتعلق بلزوم ما لا يلزم، وذلك أن بعض الجهال تكلم على أبيات من لزوم ما لا يلزم يريد بها التشهير والأذية، فالزم أبا العلاء أصدقائه أن ينشئ هذا، فأنشأ هذا الكتاب وهو كاره" (مصطفى السقا، ١٩٨٦).

ونأتي على الثلاثة الذين يلون المعاصرين لأبي العلاء، فنجد أن ما جاء به السمعاني في الأنساب (ت ٥٦٢هـ) وابن الأنباري في نزهة الألبا (ت ٥٧٧هـ) ينقلان عن سبقيهم معتمدين على قيل وحكي، أما ابن الجوزي في المنتظم (ت ٥٩٧هـ)، فيورد صفحات في ذكر المعري واتهامه، ويذكر لنا قصصاً وحكايات لم يذكرها من سبقه يثبت بها زندقة المعري وإلحاده، ويظهر بكلامه وما رواه تحاملاً على أبي العلاء، ويأتي بأشعار منها ما ورد في أحد دواوينه ومنها لم يرد ليقول بعد ذلك، "وإنما ذكرت هذا من أشعاره ليستدل بها على كفره فلعله الله" (مصطفى السقا، ١٩٨٦). وقد رد ابن العديم على هذه الأشعار سنذكرها في موضعها.

ثم يجيء بعد ذلك القفطي في إنباه الرواة (ت ٦٤٨هـ) ويكرر ما ذكره السابقون عن أبي العلاء فيذكر أشعاراً للمعري ذكرها من سبقه يستدل بها على إلحاده، ويتحدث عن معارضته للسور والآيات، ويسرد فصلاً طويلاً في ترجمة أبي العلاء وأكثر أخباره مسندة إلى قائل أو راوٍ، غير أنه يذكر قصة ترد لأول مرة، وهي قصة رحيل المعري إلى طرابلس واجتيازه اللاذقية ونزوله بدير الفاروس، ولقائه براهب يشدو من علوم الأوائل ... (انظر مصطفى السقا، ١٩٨٦)، والتي ذكرت فيما بعد عند الذهبي في تاريخ الإسلام (ت ٧٤٨هـ)، والصفدي في الوافي بالوفيات (ت ٧٦٤هـ)، وابن كثير في البداية والنهاية (ت ٧٧٤هـ)، والسيوطي في بغية الوعاة (ت ٩١١هـ)، وأجمعوا على أنه حدث له بذلك شكوك في الأديان، وقد قام ابن العديم في كتابه الإنصاف بتفنيد هذه الرحلة وعدم صحتها، وقد ردّها وتحدث عنها مطولاً محمود محمد شاكر في كتابه أباطيل وأسمار (انظر محمود شاكر، ب.د. ت).

أما ياقوت الحموي في معجم الأدباء (ت ٦٢٦هـ) فيأتي بأخبار كثيرة تدين أبا العلاء وأشعار تدل على سوء معتقده، والغريب أنه يذكر أن الناس مختلفون به ومع ذلك لم يكلف نفسه عناء البحث والتحقيق من صحة ما أورده من حكايات وقصص. وهذا حال كثير من المؤرخين فقد وقعوا بالإفك والتخرص، وخاضوا في الأخبار المفتراة حيث لا يعلمون، وذلك

لأنهم اعتمدوا في الأخبار على مجرد النقل بغير تحكيم العقل والبصيرة فيها، فضلوا عن الحق وافتروا على الناس الكذب... وإذا بحثت عن سبب هذا الخطأ وجدناه ناشئاً من غفلة المؤرخ عن التنقيب وراء هذه الأخبار، والبحث عن حقيقتها، وإذا هذا حاله فإنه يُلقي القول على عواهنه بغير أن يحاسب ضميره على خطأ أو تعمد ولا يطالب نفسه في الخبر بتوسط أو اعتدال." (حسين فتوح، ١٩١٠) بالإضافة إلى ما دخل نفس بعضهم من الحسد والغيرة من أبي العلاء.

ويقابلنا بعد ذلك ابن الأثير في الكامل (ت ٦٣٠هـ)، وسيط ابن الجوزي في مرآة الزمان (ت ٦٥١هـ)، وأبو الفداء في المختصر (ت ٧٣٢هـ) كلهم ذكروه بسوء ورموه بالكفر والزندقة، لا سيما ابن الجوزي، وقد تحامل عليه الذهبي في تاريخ الإسلام (ت ٧٤٨هـ) وأتى بأشعار يقول إنها تدل على صحة ما يحكى عنه وعن إحداه، وقد أطال في ترجمته وحكم بإحداه.

أما ابن الوردي (ت ٧٤٩هـ) وهو معاصر للذهبي فهو على العكس منه يأتي بقصص تدل على حسن اعتقاده، ويذكر أن ثمة مؤلفين ألفا كتباً للدفاع عن أبي العلاء، الأول ابن العديم "سماه العدل والتحري في دفع الظلم والتجري عن أبي العلاء المعري" ...، وصنف بعض الأعلام كتاباً سماه "دفع المعرة عن شيخ المعرة"، ويقول في هذين الكتابين فصول من نواته وذكاؤه، والاعتذار عن طعن أعدائه، والذي وصلنا وبين أيدينا منهما الكتاب الأول.

وعلى الرغم من تعصب ابن الوردي لأبي العلاء لكونه من المعرة إلا أنه يقول: "ثم وقفت له كتاب استغفر واستغفري، فابغضته وازددت عنه نفرة، ونظرت له في كتاب لزوم ما لا يلزم، فرأيت التبري منه أجزم" فرأيه لم يأت اتباعاً وتقليداً لمن سبقه، بل بعد قراءة وإطلاع على ما جاء بالكتابين غير أنه أوجد للمعري عدراً فقال: "لا بد أنه كان لما نظمها هائماً حائراً، ومذبذباً نافراً يقرّ فيها ما أن الحق قد خفي عليه، ويود لو ظفر باليقين، فأخذ به بكلتا يديه" (مصطفى السقا، ٢١٩٨٦)

ويقول: "إنه أقام على كتاب ضوء السقط فكان هذا الكتاب مصلحاً لفساده موضعاً رجوعه إلى الحق وصحة اعتقاده، فإنه كتاب يحكم بصحة إسلامه." (مصطفى السقا، ١٩٨٦) ويذكر أن المعري كان يقول: أنا شيخ مكذوب عليه. والواضح أن ابن الوردي من المؤرخين الذين تركوا انطباعات إيجابية عن المعري ودافعوا عنه بعقلانية دون أن يتأثروا بمن سبقهم.

يأتي بعد ذلك كل من ابن فضل الله العمري (ت ٧٤٩هـ) والصفدي (ت ٧٦٤هـ) على ما ذكره ابن العديم في الدفاع عن المعري، ويرى الصفدي أن الموضوع على لسان المعري فعله لا يخفى على من له لب، وأما الأشياء التي دونها وقال بها في لزوم ما لا يلزم واستغفر واستغفري فما فيه حيلة، ويقول ويحتمل أنه أروعى وناب بعد ذلك (مصطفى السقا، ١٩٨٦) ويقول أظن أن الحافظ السلفي قال: إنه تاب وأتاب. وعلى الرغم مما أورده من كلام للسلفي وابن العديم إلا أنه يأتي بقصص أوردها من سبقه كقصه سفره لطرابلس واجتيازه اللاذقية ... دون أن يتحقق من صحة الرواية.

أما اليافعي في مرآة الجنان (ت ٧٦٨هـ) فلم يذكر شيئاً سيئاً للمعري، وأما ابن كثير (ت ٧٧٤هـ) فذكر المعري بسوء وأورد قصصاً تؤكد زندقته وانحلاله (تعريف القدماء، ص ٣٠١-٣٠٣)، وكذلك اتهمه كل من ابن السخنة (ت ٨١٥هـ) وابن حجر (ت ٨٥٢هـ) وابن تغري بردي (ت ٨٧٤هـ) والسيوطي (ت ٩١١هـ) والعباسي (ت ٩٦٢هـ) فيقول: إن الناس يذكرون اختلافهم في عقيدة المعري ويورد عن السلفي ما قاله عن صحة اعتقاده. والعباسي المكي في القرن ١٢ هـ يذكر أن الناس عملوا على لسانه أشعاراً.

وفي الأندلس حظي المعري بإعجاب أهلها كغيره من الشعراء والأدباء والعلماء الذين أنجبهم المشرق، ولم تكن للمعري خصومة في الأندلس كالتى حدثت في المشرق لأنهم نظروا إلى نتاجه الأدبي بإعجاب شديد بعيداً عن الحسد والانتقاد والغيرة التي لاحقته بالمشرق، ويرجع ابن بسام اتهام أبي العلاء بدينه إلى إكثاره من الألفاظ الفلسفية في شعره ونثره، فيقول: "وكذلك المعري كثر به انتزاعه، وطال إليه انصباغه، حتى قال فيه أعداؤه وأشياعه، وحسبك من شر سماعه، ولله ماله وعليه سؤاله" (ابن بسام، ١٩٩٧: ١٩٠/١٢)، ولعل هذا الفهم الخاطئ للزوميات وراء شرح البطلوسي لها، إذ وجد نفسه ملزماً بتوضيح ما جاء فيها، متحملاً كل ما يواجهه من صعوبة ومشقة معبراً عن ذلك بقوله: "إنما تكلفنا شرحه لأننا رأينا الناس يخطئون فيه خبط العشواء، ويفسرونه بغير الأغراض التي أراد والأنحاء" (ابن السيد، ١٩٥٥).

وأجدي أميل إلى رأي أحمد تيمور فيما يتعلق بقصة ما نُسب للمعري إذ يقول: "والذي يظهر لي من مطالعة مؤلفاته، أنه لم يكن ملحدًا كما يزعمون بل كان مؤمناً بالله وكتبه ورسله، وإنما تقع بعض الأحيان أحوال يضيق بها صدره، فينفث نفثات يوهم ظاهرها، وكان الأولى به تركها وهي مهما بلغت من الشناعة والبشاعة لا تصل إلى الكفر والإلحاد، بل فيها ما إذا قارنته بما قاله في ضده لظهر ذلك جلياً أنه لم يرد ما سبق إلى ذهنك من أول وهلة، كأنحائه تارة على الديانات، ومدحه لها تارة أخرى،

فإنك لو قابلت بين القولين بإمعان لا قتنعت بأنه لم يرد بالذم الديانات نفسها، بل أراد منتحليها المتاجرين بها، وكثير ما هم في كل زمن" (أحمد تيمور انظر صلاح رزق، ١٩٨٥).

التعريف بابن العديم

ابن العديم هو عمر بن أحمد بن هبة الله بن محمد بن هبة الله بن أحمد بن أبي جرادة العقيلي، يُكنى أبا القاسم، ويلقب كمال الدين (الحموي، ١٩٩٩، الكتبي، ٢٠٠٠، الكنوي، ١٩٩٨، الحنبلي، ١٩٧٩)، ولد سنة ست وثمانين وخمسائة وتوفي سنة ستين وستمائة. (الصفدي، ١٩٩١، ابن كثير، ١٩٨٨) وقد عُرف بذكائه وعلمه وحسن خلقه، ولعل ياقوت الحموي خير من وصفه لنا بقوله: "إن الله عز وجل عني بخلقته فأحسن خلقه وخلقته وعقله وذهنه وذكاءه، وجعل همته في العلوم، ومعالى الأمور فقرأ الأدب، أتقنه ثم درس الفقه فأحسنه، ونظم القريض فجوّده، وأنشأ النثر فزيّنه، وقرأ حديث الرسول وعرف علله ورجاله، وتأويله وفروعه وأصوله، وهو مع ذلك قلق البنان جواد بما تحوي اليدان، وهو كاسمه الكمال في كل فضيلة، لم يعتن بشيء إلا كان بارزاً، ولا تعاطى أمراً إلا وجاء فيه مبرزاً، مشهور ذلك عنه، لا يخالف فيه صديق ولا يستطيع دفاعه عدو" (الحموي، ١٩٩٩)، بالإضافة إلى ختمه القرآن، وهو في سن التاسعة، وقراءته بالعشر في سن العاشرة، ومعرفته بالخط؛ إذ قيل إن خطه كان في "غاية الحسن يضاهي ابن البواب الكاتب، وأنه هو الذي اخترع قلم الحواشي". (ابن تغري بردي، ١٩٣٧: ٢٠٩، الذهبي، ٢٠٠٣).

أما عن سبب تسميته بابن العديم، فلم يرد إلا عند ياقوت، وكل ما جاء في المصادر كان نقلاً عنه، يقول "سألته أولاً لم سُميتم ببني العديم؟ فقال: سألت جماعة من أهلي عن ذلك فلم يعرفوه، وقال: هو اسم محدث لم يكن آبائي القدماء يُعرفون بهذا، وأحسب أن جدي القاضي أبا الفضل هبة الله بن أحمد بن يحيى بن زهير بن أبي جرادة -مع ثروة واسعة، ونعمة شاملة - كان يكثر في شعره من ذكر العدم، وشكوى الزمان فسمي بذلك، فإن لم يكن هذا سببه فلا أدري ما سببه؟" (الحموي، ١٩٩٩)

ولابن العديم مصنفات عدة ورد ذكرها في غير مصدر، منها: كتاب "الدراري في ذكر الدراري" جمعه للملك الظاهر، وكتاب "ضوء الصباح في الحث على السماح"، وكتاب "الأخبار المستفادة في ذكر بني جرادة"، وكتاب "في الخط وعلومه وآدابه ووصف طروسه وأقلامه"، وكتاب "تبريد حرارة الأكباد في الصبر على فقد الأولاد"، وجمع تاريخاً لحلب في نحو ثلاثين مجلداً أسماه "بغية الطلب في تاريخ حلب"، فضلاً عن كتاب "الإنصاف والتحري في دفع الظلم والتجري عن أبي العلاء المعري" موضوع هذه الدراسة (الزركلي، ١٩٨٠).

فابن العديم كما هو واضح من المصادر كان عالماً وأديباً وشاعراً وراوي، "قليل المثل عديم النظر فضلاً ونبلاً ورأياً وحزماً وذكاء وبهاء وكتابة وبلاغة" (اليافعي، ١٩٩٧، انظر الهجراني، ٢٠٠٨) وقد شارك في الحياة السياسية والعلمية لمدينة حلب، وهو من أسرة عريقة عُرفت بالعلم والفضل، وتولى بعض أفرادها منصب القضاء، وهي لا تقل فضلاً عن أسرة أبي العلاء التي ذكرها ابن العديم في كتابه "الإنصاف".

سبب تأليف الكتاب وأهميته

جاء كتاب "الإنصاف والتحري" لابن العديم ضمن كتاب تعريف القدماء بأبي العلاء، الذي عمل على جمعه وتحقيقه مجموعة من الأدباء، والظاهر أن كتاب الإنصاف لم يصل إلينا كاملاً، لخلوّه من بعض الفصول والموضوعات التي أشار ابن العديم إلى ذكرها لاحقاً، فمثلاً أثناء حديثه عن كرم أبي العلاء يقول: قرأ بخط أبي الفرج محمد بن أحمد بن الحسن الكاتب الوزير روزنامجا أنشأه لولده الحسن، يذكر فيه رحلته في سنة ثمان وعشرين وأربعمائة إلى الحج من أذربيجان وعبره معرة النعمان، ويذكر اجتماعه بأبي العلاء، وذكر فصلاً في تقرّظه والثناء، فقال بعد ذلك: "سنورده بكامله في بعض الفصول التي ترد في هذا الكتاب". (مصطفى السقا، ١٩٨٦)، ولكنني لم أجد هذا الفصل، وذكر في أحد فصول كتابه أنه سيذكر المراسلات بين داعي الدعاة والمعزي فيما يجيء من فصول هذا الكتاب (مصطفى السقا، ١٩٨٦)، لكننا لا نعث على تلك المراسلات، كما ذكر في المقدمة بعض الموضوعات التي سيعرض لها كطعن القارح في المعزي ورده، ودفع الظلم عنه وصدّه، لكنني لم أجد لهذه الموضوعات فصلاً خاصاً، لا سيما إذا علمنا أن هذه الموضوعات هي الأساس الذي يقوم عليه كتابه، مع عدم إغفالنا دفاعه عن المعزي في كل فصل من الفصول، وسأعرض لاحقاً للموضوعات والفصول التي تناولها ابن العديم في كتابه متوقفة عند منهجه.

استهل ابن العديم كتابه بمقدمة بدأها بالحمد والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، لينتقل بعد ذلك مباشرة إلى الحديث عن أبي العلاء ومصنفاته، ورأيه فيها، والذي يأتي من إيمانه الحازم به وبأدبه، فابن العديم لا يأتي بالحكم على مصنفات أبي العلاء إلا بعد قراءتها، والإمعان فيما قرأه منها، لأنه لم يقف عليها جميعاً؛ إذ يقول: "إني وقفت على جملة من مصنفات عالم معرفة النعمان، أبي العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان فوجدتها مشحونة بالفصاحة والبيان مودعة فنوناً من الفوائد الحسان، محتوية على أنواع الآداب، مشتملة من علوم العرب على الخالص واللباب، لا يجد الطامح فيها سقطة، ولا يدرك الكاشح فيها غلطة..." (مصطفى السقا، ١٩٨٦). وهو بهذا يُظهر لنا أن حكمه على أبي العلاء وإعجابه به جاء بعد الوقوف على نتاجه الأدبي وقراءته.

كما يبين في مقدمته سبب التجني على أبي العلاء لما اشتملته كتبه من علوم العرب، وأنواع الأدب وغيرها من الصفات التي تميزه عن غيره، والذي لا يستطيع تمييزها إلا أهل الإنصاف؛ لذلك "قصده جماعة لم يعوا وعيه، حسدوه إذا لم ينالوا سعيه، فتنبعوا كتبه على وجه الانتقاد... فحين علموا سلامتها من العيب والشين، سلخوا فيها معه مسلك الكذب والشين، ورموه بالإلحاد والتعطيل" (مصطفى السقا، ١٩٨٦)، فلو تخلص الإنسان من الحسد لاستطاع الإنصاف والعدل، ولكن هذه عادة الزمن في الإساءة لأصحاب الفضل، فكل من يتصف بصفات أبي العلاء من فصاحة، وإدراك لأنواع العلوم، ومعرفة باللغة، ينال ما ناله أبو العلاء من الحسد، ويرجع ابن العديم عدم فهم الطاعن لكلام أبي العلاء، لثقافة أبي العلاء الواسعة باللغة، وهذا مصدر الظلم الذي وقع عليه برأيه.

ويشير إلى أن أبا العلاء قد ألف كتاباً أسماه "زجر النابح" يُبطل فيه طعن المُزري عليه والقادح، مبيّناً فيه إيمانه الصحيح، ثم اتبع ذلك بكتاب "نجر الزاجر"، يبين فيه المواضع التي طعن فيها، غير أن عذره هذا لم يمنعه من تكفيره، فكفّروه بعد ذلك بالتقليد، دون أن يحكموا عقولهم فيما يقول.

لذلك كان لابد من وجود من ينظر إلى أدبه نظرة المُنصف، ويفهم معانيه كما يريد، ويظهر الحقيقة التي عجز أبو العلاء عن إقناع الناس بها، فكان هذا المُنصف لابن العديم الذي يقول: "فابتدرت دونه مناضلاً، وانتصبت عنه مجادلاً، وانتدبت لمحاسنه ناقلاً"، وهذا ما حاول إثباته في كتابه، فعلى الرغم من عدم وجود فصل خاص للدفاع عن أبي العلاء لعدم وصوله إلينا، إلا أننا نجد في كل فصل تقريباً تأكيداً لإيمانه بأبي العلاء ودفاعه عنه، وهذا ما دفعه لتأليف كتاب ينصف فيه أبا العلاء ويرفع الظلم الذي وقع عليه، فجاء عنوان الكتاب "الإنصاف والتحري" مناسباً لهدف المؤلف وغايته.

ويعرض ابن العديم في مقدمته الموضوعات التي سيتناولها في كتابه: مولد أبي العلاء ونسبه، وتحصيله للعلم وطلبه، ودينه الصحيح ومذهبه، وورعه الشديد واجتهاده القوي وجده، وطعن القادح فيه وردّه، ودفع الظلم عنه وصدّه، وهذا ما لم يرد فيما وصل إلينا من الكتاب.

ومن الملاحظ أن ابن العديم في مقدمته أورد -بوضوح- من خلال الإشارة إلى سبب تأليفه الكتاب إلى رأيه بأبي العلاء وإيمانه به ودينه ومعتقدده، وهي الفكرة التي أقام عليها كتابه، وحاول تأكيدها في كل ما يقول.

وتأتي أهمية هذا الكتاب من كونه الكتاب الوحيد الذي وظف عنوانه وخصص محتواه للدفاع عن أبي العلاء كما فعل الجرجاني مع المتنبي وخصومه، فابن العديم رأى أن المعري في رأي بعض الناس والنقاد ملحد كافر، ولعله هدف بمصنّفه هذا إلى لفت أنظار النقاد إلى الظلم الذي وقع عليه، لعلهم يعيدون النظر في أدبه.

مادة الكتاب ومنهجية المؤلف

تطرق ابن العديم بعد المقدمة إلى ذكر بعض الموضوعات التي سيناقشها في مصنّفه موزعة على فصول عدة؛ إذ يبدأ المؤلف باسم أبي العلاء وصولاً بنسبه إلى آدم عليه السلام، ومما يلاحظ أن ابن العديم يتوقف عند بعض الكلمات موضعاً وشارحاً، فيقول مثلاً قحطان - وهو مجتمع قبائل العرب - ويتوقف عند مجتمع تنوخ، وسبب تسمية تنوخ بهذا الاسم، وعن نسبة المعرة إلى النعمان، وينفي أن تكون المعرة نسبة للنعمان بن عدي الملقب بالساطع فيقول: "وبعض الجهال يقول: إن معرة النعمان تنسب إليه، وليس بصحيح، بل تنسب إلى النعمان بن بشير الأنصاري (مصطفى السقا، ١٩٨٦)، ويعلل سبب هذا الخطأ بقوله: "وإنما نسب الجهال المعرة إلى النعمان بن عدي المعروف بالساطع، لأن أهلها كلهم أو بعضهم من بني الساطع، فظنوا أنها منسوبة إليه" (مصطفى السقا، ١٩٨٦).

وتحدث عن أمر تنوخ في الجاهلية والمعارك التي كانت لهم مع الفرس، كما تحدث عن أمرهم في الإسلام، ويؤكد أن تنوخ من أكثر قبائل العرب مناقب وحسبًا، ومن أعظمها مفاخر وأدبًا، وفيهم الخطباء والفصحاء والبلغاء والشعراء، وجاء ذكره لتنوخ لبيان علاقة أبي العلاء بهذه القبيلة من حيث النسب (انظر المزيد عن نسب تنوخ السمعاني، ١٩٨٠).

وبعد أن ينهي حديثه عن قبيلة تنوخ، ينتقل إلى الحديث عن بني سليمان مفصلاً القول فيهم، ومبيناً أن أكثر قضية المعرفة وفضلاتها وعلمائها وأدبائها منهم، ويأتي على ذكر من اشتهر من بني سليمان بالقضاء، وعرف بالفضل، فيذكر جدد أبي العلاء، فيأتي على ذكرهم واحداً واحداً مبيناً تاريخ ولادة كل منهم ووفاته إن وجد، وما امتاز به من صفات، وما تولاه من مناصب في القضاء خاصة قضاء المعرفة، ومن كان منهم راوية للحديث، وامتاز بالفصاحة والبلاغة وقول الشعر، إلى أن يصل إلى والد أبي العلاء الذي كان راوياً للحديث، مبيناً تاريخ مولده سنة ٣٣٠ هـ ووفاته سنة ٣٩٥ هـ، على الرغم من اختلاف الدارسين بهذه السنة، ويؤكد الدكتور إحسان عباس ما ذهب إليه ابن العديم أثناء تحقيقه لترجمة أبي العلاء في معجم الأدباء؛ إذ يقول: "إن سقوط كلمة والد جعل الدارسين يظنون أن عبد الله نفسه هو الذي توفي في ذلك العام، ولهذا ذهبوا يناقشون المسألة، ويبنون أحكاماً مختلفة، ذلك لأن من الثابت أن وفاة والد أبي العلاء إنما كانت سنة ٣٩٥ هـ" (الحموي، ١٩٩٩).

ويذكر ابن العديم في فصله هذا أولاد أبي محمد عبد الله والد أبي العلاء، ويفصل القول فيهم، ويذكر أبناءهم وأحفادهم، وما تولوه من مناصب، وما عرفوا به من صفات، وعلاقة أبي العلاء بإخوانه، وأبناء إخوانه وما روه عنه وما رواه عنهم، وجمعه شعر أخيه أبي الهيثم لابنه زيد. وهو في هذا كله يريد أن يثبت أن أبا العلاء من أصل رفيع وشريف، ومن أسرة عريقة صاحبة فضل وعلم وفصاحة، ونفي ما طعن به من سوء معتقده.

ومما يلاحظ على ابن العديم أنه عند ذكر أي رواية، يأتي بها مسندة، مستخدماً عبارات عدة كقوله أنشدني، أو أخبرني، أو أخبرنا كتابه، أو سمعت، أو قرأت بخط.... إلخ، وإذا كان شاكاً يقول: قال بعض الناس، وبعضهم يقول وأظن، ولعل... وغيرها من العبارات التي تتكرر كثيراً في كتابه، فإذا أراد أن يورد شعراً يأتي بالسند متصل إلى أن يصل به إلى صاحب الشعر؛ كأن يقول: "وقرأت بخط أبي اليسر شاعر بن عبد الله بن سليمان، عند حديثه عن مولد الشيخ أبي الهيثم فيقول: وله شعر مدون جمعه أخوه أبو العلاء لابنه زيد، منه ما أنشدنا أبو اسحاق إبراهيم من أبي اليسر بدمشق، قال: أنشدني أبي شاعر عبد الله، قال: أنشدني جدي أبو المجد محمد بن عبد الله بن محمد، قال: أنشدني الشيخ أبو العلاء أحمد بن عبد الله، قال: أنشدني أخي أبو الهيثم لنفسه يخاطب بعض الشعراء.. ثم يورد الشعر (مصطفى السقا، ١٩٨٦)، ويبين رأيه فيه، فيقول: "وهو كتاب حسن في فنه، ووقفت له على رسائل حسنة من كلامه" (مصطفى السقا، ١٩٨٦).

فابن العديم يسعى إلى نقل الرواية بدقة، ومحاولة أخذها من المقربين لما يتحدث عنه، وهذا يتكرر كثيراً في فصول كتابه، فأتينا حديثه عن أبي اليسر يقول: "ودفن بسفح جبل قاسيون، أخبرني بوفاته ولده إبراهيم" (مصطفى السقا، ١٩٨٦)، ومن ذلك قوله: "أنشدني زين الأمانة أبو البركات الحسن بن محمد بن الحسن، أنشدني أبو اليسر شاعر بن عبد الله المعري، أنشدني جدي أبو المجد محمد بن عبد الله لنفسه ... " (مصطفى السقا، ١٩٨٦).

وبعد أن ينهي ابن العديم ذكر نسب أبي العلاء يأتي على ذكر مولده ونشأته وعماه وصفة خلقه، ويخصص له فصلاً كاملاً يذكر فيه مولده سنة ثلاث وستين وثلاثمائة، "قال ابن العديم: ولد أبو العلاء في سنة ست وستين وثلاثمائة... وذكر الوزير أبو غالب عبد الواحد... في كتابه الذي جمعه في المختار من أشعار الشعراء.... وأخبرنا بذلك عند الحافظ أبو عبد الله النجار، قال: ولد (يعني أبا العلاء) لثلاث بقين من ربيع الأول سنة ست وستين وثلاثمائة" (مصطفى السقا، ١٩٨٦)، غير أنه لا يكتفي بنقل الروايات بل يقوم بتفنيدها، والرد عليها إذا كانت غير صحيحة، مؤكداً الصحيح منها، فيقول-مثلاً- عما قاله ابن العديم، "وهذا ليس بصحيح" (مصطفى السقا، ١٩٨٦)، ويقول بعد إيراده لرواية أبي غالب عبد الواحد "والصحيح في مولده ما أخبرنا به أبو اليمين زيد بن الحسن بن زيد الكندي كتابة وقراءة عليه ... قال: ذكر لي أبو العلاء المعري أنه ولد يوم الجمعة لثلاث بقين من شهر ربيع الأول سنة ثلاث وستين وثلاثمائة" (مصطفى السقا، ١٩٨٦)، ويذكر روايات عدة تثبت مولده في هذه السنة بأسانيد مختلفة.

أما إذا كانت الرواية أو الحكاية نقلاً دون سند يُذكر فلا يقطع بصحتها، فيقول: "وقد نقل بعض أهل الأدب في حكاية ذكرها عن ابن منقذ، أنه رأى أبا العلاء وهو صبي دون البلوغ ... إن صحت هذه الحكاية، فإن منقذاً هذا، والله أعلم، هو المتوج مقلد بن نصر" (مصطفى السقا، ١٩٨٦).

وخصص فصلاً في ذكر اشتغاله بالعلم وذكر شيوخه الذين أخذ عنهم؛ يبين فيه أن أبا العلاء قرأ القرآن العظيم بالروايات على جماعة من الشيوخ، وأنه سافر إلى بغداد سنة تسع وتسعين للاستكثار من العلم، وأنه أخذ الحديث عن أبيه وآخرين، كما قرأ اللغة والنحو على يد والده.

ويفرد فصلاً في ذكر من قرأ على أبي العلاء، وروى عنه من العلماء والأدباء والمحدثين من أهل المعرفة وغيرهم من الغرباء؛ يذكر فيه من قرأ على أبي العلاء من أهل بلده بالشام ومن الأندلسيين، مبيّناً قيمته العلمية وقيمة من أخذ عنه فيقول: "فهؤلاء كلهم أئمة وقضاة وعلماء أثبات، وأدباء، ورواة وحفاظ ثقات، ورووا عنه، وكتبوا عنه، وأخذوا العلم واستفادوا منه، لم يذكره أحد منهم بطعن، ولم ينسب حديثه إلى ضعف ولا وهن" (مصطفى السقا، ١٩٨٦)، وهو بهذا أيضاً يدافع عن أبي العلاء، وينفي ما قيل عنه بشهادة من أخذوا عنه.

ويأتي بعد ذلك على ذكر شيء مما وقع إلينا من حديث أبي العلاء المعري رحمه الله مسنداً، ففي هذا الفصل يتوقف ابن العديم عند مجموعة من الأحاديث التي رواها أبو العلاء، وبعد القيام بتخريج هذه الأحاديث من مصادرها تبين أن أبا العلاء لم يكن من رجال السند في كل الأحاديث التي ذكرها ابن العديم، فمثلاً الحديث "اليمن الفاجرة تنفق السلعة وتمحق البركة" (مصطفى السقا، ١٩٨٦)، حديث صحيح عند مسلم وغيره، إلا أن أبا العلاء ليس من رواه كما ذكر ابن العديم، غير أنني لم أجد النص بالصيغة التي أوردها ابن العديم، فعن رسول الله: "الحلف منفقة للسلعة مَحَقَّة للربح" (مسلم صحيح مسلم كتاب المساقاة والمزارعة باب النهي عن الحلف والبيع رقم ١٦٠٦، انظر القرطبي، المفهوم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم كتاب البيوع باب النهي عن الحكرة رقم ١٦٩٨) وعن أبي قتادة أنه سمع رسول الله يقول: "إياكم وكثرة الحلف في البيع، فإنه ينقّ ثم يمحق" (مسلم صحيح مسلم كتاب المساقاة والمزارعة باب النهي عن الحلف والبيع رقم ١٦٠٧، انظر القرطبي، المفهوم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم كتاب البيوع باب النهي عن الحكرة رقم ١٦٩٩)، أما حديث لو علم الناس رحمة الله بالمسافر.. (مصطفى السقا، ١٩٨٦)، فقد قال عنه الألباني "ضعيف جداً، أخرجه السلفي في أخبار أبي العلاء المعري من طريق المعري - وحاله معروف - وقد أنكره النووي في شرح المذهب، فقال ليس هذا خبراً عن النبي، وإنما هو كلام بعض السلف، قيل إنه علي بن أبي طالب" (الألباني، ١٩٧٩). وأما حديث "إن الحسد ليأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب..." (مصطفى السقا، ١٩٨٦: ٥٢١) فقد قال الألباني أيضاً: "ضعيف رواه عبد الله بن حميد في المنتخب من المسند والبخاري في التاريخ وأبو داود، وقال البخاري: لا يصح: قلت: ورجاله موثقون غير جد إبراهيم وهو مجهول لم يسم" (الألباني، ١٩٩٢: ٣٧٥). وأما حديث "لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً ودماً خير له من أن يمتلئ شعراً هجيت به" (مصطفى السقا، ١٩٨٦) فهو حديث صحيح رواه البخاري (العسقلاني فتح الباري كتاب الأدب، رقم ٥٨٠٢)، لكن أبا العلاء لم يذكر من سلسلة السند، فابن العديم يجعل المعري من رواة مجموعة من الأحاديث، ولم يشر إلى مدى صحتها أو ضعفها أو يتحقق من صحة رواية المعري لها.

وبعد أن ينهي فصله، يأتي على ذكر كُتّاب أبي العلاء الذين كانوا يكتبون له ما ينشئه من الرسائل والنظم والتصنيف والإملاء، فيتوقف عند عدد منهم، ويذكر ملازماتهم لأبي العلاء كما يتحدث عن مناصبهم وصفاتهم وتصانيفهم وعن رأيهم بأبي العلاء، وهو رأي إيجابي، فمنهم ابن أخيه أبو محمد عبد الله بن محمد، وابن أخيه أبو الحسن علي بن محمد، وجعفر بن أحمد بن صالح، وأبو الحسن علي بن عبد الله، ويذكر صفات كل واحد منهم، ومن كُتّابه أبو الفتح محمد بن علي، وإبراهيم بن علي بن إبراهيم الخطيب.

ويفرد ابن العديم فصلاً في ذكر تصانيف أبي العلاء ومجموعاته وتآلفيه وأشعاره المدونة ورسائله المفتنة، يعرض فيه مصنفات أبي العلاء في النثر من كتب ورسائل، أو الشعر أو العروض، أو شروح الشعر أو كتب النحو، ويبين موضوعات هذه المصنفات وعدد الكراريس، وأول مصنف يذكره هو "الفصول والغايات في تمجيد الله تعالى والعظات" متوقفاً عند عنوانه والغاية من تأليفه، فيقول: "قيل: إنه عارض به السور والآيات (انظر ابن الجوزي، ب.د.ت: ؛ البغدادي، ٢٠٠١)، تعديا عليه وظلماً، وإفكاً به أقدموا عليه إثمًا، فإن الكتاب ليس من باب المعارضة في شيء (مصطفى السقا، ١٩٨٦). وقد ذكر البخاري أن هذا الكتاب كان سبباً في تحدث الألسن عن أبي العلاء والإساءة له. (البخاري، ١٩٩٣).

وأثناء تعداده للمصنفات يبين ما قرأه منها وما لم يقرأه، متحدثاً عن كل كتاب وعن مضمونه ولعن ألفه، ومن ذلك قوله: "وكتاب شرح فيه ما جاء في هذا الكتاب (يقصد خطبة الفصح) من الغريب يعرف ب(تفسير خطبة الفصح) لا أعلم مقداره، ولم أقف عليه" (مصطفى السقا، ١٩٨٦)، وهذا منهج اتبعه في كتابه، فالمصنف الذي لم يطلع عليه يقول: "لا أعلم مقداره، ولم أقف عليه"، وقد أشار في مقدمته إلى أنه لم يقف على كل المصنفات؛ إذ قال: "وقفت على جملة منها"، وإذا كان ثمة ما هو بحاجة إلى التصحيح صححه، كقوله عن الكتاب الذي ألفه يفسر به الصاهل والشاحج (لسان الصاهل والشاحج)

عمله لوزير الدولة ... وبعض الجهال يقول: إنه عمله لأبي الدوام ثابت بن ثمال وكان يلقب عزيز الدولة وهو غير صحيح" (مصطفى السقا، ١٩٨٦).

أما الفصل المخصص لذكر رحلته إلى بغداد، وعودته إلى معرة النعمان، وانقطاعه في منزله عن الناس، وتسمية نفسه "رهين المحبسين" رحمه الله، فيذكر في بدايته أنه رحل إلى بغداد لطلب العلم والاستكثار منه، والاطلاع على الكتب ببغداد، وينفي أن يكون سبب الرحيل لطلب دنيا أو رفد، ويأتي بدليله شعراً ونثراً على لسان المعري. (مصطفى السقا، ١٩٨٦) كما يتوقف عند بعض الحوادث التي حصلت مع المعري في بغداد، والرسالة التي بعثها إلى أهل المعرة بعد قدومه من بغداد.

وقد خصص فصلاً للحديث عن ذكاء أبي العلاء وفطنته وسرعة حفظه وألمعيته وتوقد خاطره وبصيرته؛ إذ يأتي فيه على ذكر كثير من القصص التي تدل على ذكاء أبي العلاء المعري رواية، كأن يقول أخبرنا فلان، أخبرنا كتابه، قرأت بخط، سمعت والدي، حكى تلميذه التبريزي ...، وعلى الرغم من أن الروايات تؤكد ذكاء أبي العلاء وتساعد ابن العديم في دفاعه عنه، إلا أن ابن العديم لا يسلم بكل ما يروي، ويتوقف عند الرواية التي لا تقنعه ويناقشها، ومثال ذلك حين ذكر حكاية ابن منقذ الذي يتحدث فيها عن خزانة كتب في أنطاكية، وذهاب المعري إلى هناك، والتي يشير فيها إلى ذكاء المعري وسرعة حفظه، باختياره كتاباً وقراءته على أبي العلاء ومطالبة أبي العلاء بإعادة ما أملاه عليه، فيعلق ابن العديم على ذلك بقوله: "وهذه الحكاية فيها من الوهم ما لا يخفى وذلك أنه قال: كان بأنطاكية خزانة كتب إلى آخر ما ذكر، وهو شيء لا يصح"، ويبين أن أنطاكية أخذها الروم من أيدي المسلمين سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة، وهذا ما ذكره الحميري في كتابه "الروض المعطار" أثناء حديثه عن أنطاكية (الحميري، ٣٨) والمعري ولد سنة ثلاث وستين وثلاثمائة، وبقيت في أيدي الروم إلى سنة سبع وسبعين وأربعمائة، وكان أبو العلاء قد مات قبل ذلك في سنة تسع وأربعين وأربعمائة (مصطفى السقا، ١٩٨٦)

فابن العديم بتعليقه هذا ينفي أن يكون المعري قد رحل إلى أنطاكية آنذاك، ويتابع قوله: "يحتمل أن يكون هذا بكفر طاب، ولعله صحف كفر طاب بأنطاكية وتصحيفها غير مستبعد" (مصطفى السقا، ١٩٨٦)، ومع ذلك فهو لا يجزم بالأمر إذ يقول: يحتمل عندي...، ولعله...، وإن كان كذلك ...

كما ينفي رحيله إلى طرابلس، فيقول "وقد ذكر بعض المصنفين أن أبا العلاء رحل إلى دار العلم بطرابلس للنظر في كتبها، واشتبه عليه ذلك بدار العلم ببغداد، ولم يكن بطرابلس دار علم في أيام أبي العلاء، إنما جدد دار العلم بها القاضي جلال الملك أبو الحسن علي بن محمد بن أحمد بن عمار في سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة، وكان أبو العلاء قد مات قبل جلال الملك في سنة تسع وأربعين وأربعمائة" (مصطفى السقا، ١٩٨٦)، وهكذا تظهر لنا هذه الروايات ابن العديم باحثاً متروياً يتحرى الدقة ويستوثق من الرواية قبل الأخذ بها، حتى لو كانت في مصلحة أبي العلاء، وهذا ما لم نجده في نقله للأحاديث.

ويتوقف ابن العديم عند الحكايات التي تمس أبا العلاء وأخلاقه، من ذلك ما قرأه في التتمة من لعب أبي العلاء للشطرنج والنرد، فقال: "وهذا إن صح عن أبي العلاء فقد كان ذلك في حال حدائته، فإن أبا العلاء رحمه الله كان بعيداً عن اللعب والهزل" (مصطفى السقا، ١٩٨٦) وعلى الرغم مما تحمله هذه الروايات من مبالغة في وصف ذكاء أبي العلاء إلا أنه لا يمكننا نفيها تماماً، لأنها تتضمن شيئاً من الصحة، ولأن كثيراً من الدارسين الذين طعنوا في معتقد أبي العلاء أشادوا بذكائه وفطنته وسرعة حفظه.

وفي فصل في ذكر حرمة عند الملوك والخلفاء والأمراء والوزراء يبين مكانة أبي العلاء عند الملوك والأمراء، وما حظي به من إعجاب واحترام، مع ذكر الروايات التي تدل على ذلك، كما ينفي في هذا الفصل سير أبي العلاء إلى حلب بعد رجوعه إلى معرة النعمان من بغداد، ولكنه لا يجزم بذلك فيقول: وما أظن ...، ويبين أنه قرأ هذه الحكاية في تاريخ سيره إلى بعض الهاشميين بحلب لأبي غالب همام بن الفضل (مصطفى السقا، ١٩٨٦)، مع أن أبا العلاء قد أشار في شعره إلى خروجه من المعرة مرة واحدة بعد عزلته، ليشفع لأهل المعرة عند صالح بن مرداس، وقد ذكر ابن العديم الأبيات .

كما أفرد ابن العديم فصلاً تناول فيه اضطراره بالعلم والأدب ومعرفته باللغة ولسان العرب، ويأتي فيه على ذكر قصص كثير تتعلق بهذا الموضوع، ثم يتطرق في فصل آخر إلى ذكر كرم أبي العلاء وجوده على قلة ماله ونزره.

ويختتم كتابه كما وصل إلينا بذكر قناعة نفسه وشرفها وعفتها عن أخذ صلات الناس، فهو لم يقبل الهدية، ولم يمدح من أجل العطاء، ويرفض ما يعرض عليه من أموال.

بعد هذا العرض لموضوعات كتاب ابن العديم "الإنصاف والتحري" ودراساتها وبيان منهج المؤلف في دفاعه عن عقيدة أبي العلاء، لا يمكننا الجزم بأن ابن العديم قد استطاع أن يحقق كل ما كان يصبو إليه، نظرًا لوجود نقص فيما وصل إلينا من كتابه، ولو تمكنا من العثور على ما فقد منه لكان حكمنا أكثر دقة، ولعل شيئًا يظهر منه أو نسخة أخرى كاملة تضيء لنا المزيد من جوانب هذه القضية التي نذر ابن العديم كتابه للدفاع عنها.

يرى ابن العديم أن المعري تعرض إلى حملة شعواء من أعدائه الحساد فنسبوه إلى الكفر وليس به، وراجت أكاذيبهم عليه حتى صدقها كل من لم يبحث في أصل الأخبار وبين أن التهمة لاحقت أبا العلاء في حياته، وأن المعري أنشأ كتاب زجر النابح ردًا به على الطاعنين له بَيَّن فيه دينه الصحيح، واتبعه بكتاب نجر الزاجر بين قبيح المواضيع التي طعن فيها غير أن هذا لم يمنعهم من تكفيره.

ويُبين ابن العديم أن الكثير من الأشعار التي نسبت للمعري تدينه ما هي إلا من صُنع تلاميذه. وأن كتاب الفصول والغايات لم يؤلفه لمعارضة السور والآيات كما يدعي بعض المؤرخين والمؤلفين الذين أشرنا إليهم في بداية البحث أثناء عرضنا للتهمة التي وجهت للمعري _ وإنما ألفه لتمجيد الآيات. ويذكر أن كتاب الله عزوجل قد تناول جماعة عليه وقاموا بتأويله على غير وجوه التأويل فصرفوا تأويله إلى ما أرادوا؛ ليقول بعد ذلك: فما ظنك بكلام رجل من البشر ليس بمعصوم إن زلَّ أو عثر، إلى أن يقول إذ قصده بعض الحساد، فحُمل كلامه على غير المراد.

ومن الملاحظ على أسلوب ابن العديم ومنهجه في التأليف أنه لا يأخذ الرواية ويسلم بها دون التحقق من صحتها، وهذا ما لاحظناه في الرواية والحكاية التي رواها ابن منقذ عن رحيل المعري إلى انطاكية، فتوقف عندها ابن العديم مناقشًا وأثبت بالأدلة عدم صحتها وقال: فيها من الوهم الكثير. ومن ذلك أيضًا الرواية التي ذكرها القفطي وكررها بعض من جاء بعده دون التحقق من صحتها، وهي الرواية التي تذكر أن المعري رحل إلى طرابلس واجتاز اللاذقية وبعد ذلك نزل دير الفاروس التي التقى بها راهبا علمه علوم الأوائل فكانت سببا في إدخال الشك إلى أبي العلاء الذي أدى فيما بعد إلى إحداه، وقد حاول الطاعنون ترويض هذه الرواية من أجل إثبات كفر أبي العلاء وإحداه فجاء ابن العديم ورد هذه الرواية.

كما أتى ابن العديم على نسب أبي العلاء وذكره بالتفصيل، وأثبت أن المعري من أصل رفيع وشريف، ومن أسرة عريقة صاحبة فضل وعلم وفصاحة تولوا مناصب بالقضاء وهو كآسرتة، وكأنه يقول لا يمكن لمثل هذا الرجل أن يكون كما اتهمه الحاسدون. وذكر أن لا أحد من شيوخه أو تلاميذه طعن بالمعري أو شكك بدينه.

ولاحظنا أن كل من ذكر ابن العديم ذكره بخير، وأنه موثوق الرواية، وقد أورد بعضهم نصوصًا من كتابه الإنصاف أثناء ترجمتهم للمعري، غير أن منهم من بقي معاندًا مصرًّا على إلصاق التهمة بالمعري وتكفيره، ومنهم من أخذ برأيه وأنصفه كما فعل ابن الوردي.

بيان تضارب المصالح

يقر جميع المؤلفين أنه ليس لديهم أي تضارب في المصالح.

المراجع

- الألباني، محمد ناصر الدين. (١٩٧٩). *إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل* (ط. ١). بيروت: المكتب الإسلامي.
- الألباني، محمد ناصر الدين. (١٩٩٢). *سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة* (ط. ١). الرياض: دار المعارف.
- ابن تغري بردي، جمال الدين. (١٩٧٣). *النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة* (ط. ١). القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية.
- ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي. (د.ت). *المنتظم في تاريخ الملوك والأمم*. بيروت: دار الكتب العلمية.
- ابن كثير، أبو الفداء. (١٩٨٨). *البداية والنهاية*. بيروت: مكتبة المعارف.
- الباخري، علي بن الحسين. (١٩٩٣). *دمية القصر وعصرة أهل القصر* (ط. ١). بيروت: دار الجيل.
- البطليوسي، ابن السيد. (١٩٥٥). *الانتصار ممن عدل عن الاستبصار*. القاهرة: المطبعة الأميرية.

- البغدادي، أحمد بن علي الخطيب (٢٠٠١). تاريخ مدينة السلام (ط. ١). دار الغرب الإسلامي.
- تيمور، أحمد (١٩٤٠). أبو العلاء المعري. القاهرة.
- الحنبلي، ابن العماد (١٩٧٩). شذرات الذهب في أخبار من ذهب. بيروت: دار الميسرة.
- الحموي، ياقوت (١٩٧٣). معجم الأدباء. بيروت: مؤسسة المعارف.
- الحميري، محمد بن عبد الله (١٩٨٤). الروض المعطار في خبر الأقطار (ط. ٢). بيروت: مكتبة لبنان.
- الذهبي، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد (٢٠٠٣). تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام (ط. ١). بيروت: دار الغرب الإسلامي.
- رزق، صلاح (١٩٨٥). نثر أبي العلاء دراسة فنية (ط. ١). القاهرة: دار الثقافة العربية.
- الزركلي، خير الدين (١٩٨٠). الأعلام (ط. ٥). بيروت: دار العلم للملايين.
- السمعاني، عبد الكريم بن محمد (١٩٨٠). الأنساب (ط. ٢). القاهرة: مكتبة ابن تيمية.
- شاكر، محمود محمد (ب. دت). أباطيل وأسمار. القاهرة: مكتبة الخانجي.
- الشنتريني، ابن بسام (١٩٩٧). النخبة في محاسن أهل الجزيرة. بيروت: دار الثقافة.
- الصفدي، صلاح الدين (١٩٩١). الوافي بالوفيات (ط. ٢). دار فرانز شتايز شتوتغارت.
- العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر (١٩٨٦). فتح الباري على صحيح البخاري (ط. ١). القاهرة: دار الريان للتراث.
- فتوح، حسن (١٩١٠). عقيدة أبي العلاء. القاهرة: المطبعة الهدية بالموسكي.
- القرطبي، أحمد بن عمر بن إبراهيم (١٩٩٦). المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (ط. ١). دمشق: دار ابن كثير.
- الكتبي، محمد شاكر (٢٠٠٠). فوات الوفيات (ط. ١). بيروت: دار الكتب العلمية.
- الكلوني، محمد عبد الحي (١٩٩٨). الفوائد البهية في تراجم الحنفية (ط. ١). دار الأرقم.
- مسلم، مسلم بن الحجاج (٢٠٠٦). صحيح مسلم (ط. ١). دار طيبة.
- مصطفى السقا وآخرون (١٩٨٦). تعريف القدماء بأبي العلاء. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- الهجراني، الطيب بن عبد الله الحضرمي (٢٠٠٨). قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر (ط. ١). جدة: دار المنهاج.
- اليافعي، عبد الله بن أسعد (١٩٩٧). مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان (ط. ١). بيروت: دار الكتب العلمية.